تقنيات الحِجاج في نهج البلاغة

المدرس الدكتور

مؤيد آل صوينت

(كلية الآداب- الجامعة المستنصرية)

تقنيات الحِجاج في نهج البلاغة

المدرس الدكتور: مؤيد آل صوينت

(كلية الآداب- الجامعة المستنصرية)

شهدت اللسانيات ونظريات تحليل الخطاب والتصورات الحجابية تعريفات متنوعة "للحجاج" منظوراً إليه بسماته الموضوعية العامة أو البنى اللغوية المميزة أو علاقته بالبلاغة وهل هي علاقة امتداد أم علاقة تقاطع، أو الوظائف الاتصالية والايصالية أو الأنساق المكونة له. ففي الوقت الذي تعد فيه الاستمالة أو المولاة Adheveuce هي المعيار الأهم الذي بنيت عليه تعريفات متعددة منها تعريف (ريك) Rieke و(سيلارز) Sillars اذ يعرفان الحجاج بأنه (عملية عرض دعاوى تتضارب فيها الآراء مدعومة بالعلل والدعامات المناسبة بغية الحصول على الموالاة لأصل تلك الدعاوى) تبرز تعريفات أخرى الحجاج فعلاً لغوياً أو عملية اتصالية أو جنساً من خطاب تفاعلي مع إبراز أهم مكوناته، على نحو ما نجد في تعريف (ماس) Maas و(شيفرين)

Debavah و(فينفجر) Viehweger[1] وأورد (بيرلمان وتيتكا) تعريفات متعددة للحجاج في مواضع مختلفة من كتابهما أهمها قولهما: موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها ان تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم، ويربطان في موضع آخر بين الحجاج والغاية فيرقنان: غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من أراء أو أن تزيد في درجة تلك الإذعان، فانجح الحجاج ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب انجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق –على الأقل– في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة. ويستند مفهوم الحجاج عند (بيرلمان وتيتكا) – فيما هو ظاهر التعريفين– إلى صناعة الجدل من جهة وصناعة الخطابة من جهة أخرى بكيفية تجعل الحجاج شيئاً ثالثاً لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة، لنقل معهما انه (خطابة جديدة)

---

١ . ينظر: النص الحجاجي العربي (بحث) ص٤٣.

فأما اثر الجدل من حيث هو فن يتوسل المشـــهورات أو المسلمات لإلزام الخصم فيظهر من حديثها عن التـــأثير الذهني في المتلقي، وعن تسليمه بما يقدم له وإذعانه لمـــا يعرض عليه من خلال إلحاحهما على فكـــرة (توجيـــه العمل) والإعداد له والدفع إليه. يقـــول (روبـــول) في معرض التمييز بين الجدل والخطابة الأرسطيين: الجـــدل لعبة نظرية، أما الخطابة فليست لعبة، إنها وسيلة عمـــل اجتماعي.

تكمن قيمة تعريفي (بيلمان وتيتكا) للحجاج في دمـــج ثنائية العقل/ العاطفة في العمل الحجاجي، فعندهما –كما هو واضح من التعريف الثـــاني– أن العمـــل الحاصـــل بوساطة الحجاج على صعيد العقل وهو عمـــل التـــأثير النظري والإذعان والتسليم (وهو غاية الجـــدل عـــادة، مؤدٍ إلى العمل السلوكي) الذي كانت من جملة مصادرة في منظور الخطابة العاطفة الملحمية والمشـــاعر الجياشـــة ومعنى ذلك أن العمل المترتب على الحجاج ليس متوسلاً إليه بالمغالطة والتلاعب بالأهواء والمناورة، بل هو عمل هيأ له العقل والتدبر والنظر الأمر الذي يتضـــح مـــن

تقسيم وظائف الحجاج إلى: الإقناع الفكري الخالص أولاً، والإعداد لقبول أطروحة ما ثانياً، والدفع إلى العمل ثالثاً[1].

والحجاج باعتباره حرية وحواراً عقليين، لا يمكن الاستغناء عن الأطر المكونة له والمحيطة به لاسيما الاستدلال والخطابة، وان كان في جوهرة اقرب إلى هذه الأخيرة، لأن الحجاج لا يكون إلا في الأمور التي تثير الشك وتتطلب جهداً فكرياً وعقلياً لتدقيقها وكشف لبسها، ولعل هذا سر جمع بيرلمان في نظرية بين الخطابة والجدل الأرسطيين.

التقنيات الحجابية:

تتطلب العملية الحجابية من اجل ترسيخ الخطاب في جمهور المتلقين جملة من الآليات وتستدعي جمعاً من الوسائط الاقناعية تأخذ سمة التثبت والاستقرار، بما أن التقنيات الحجابية كيانات مجردة يشغلها المحاج عمله من القيم والحقائق حتى تصبح فاعلة في الخطاب موجهة

---

١ . ينظر: الحجاج التصورات والتقنيات (بحث) ص٥.

حركته، تتجلى قصيدتها في الأفعال الحجابية التي ينجز عنها تبديل عقائد الجمهور وتوجيه تصوراته العقدية الرمزية والانطولوجية. ويقود اختبار المعطيات والحجج والمقدمات وإحضارها في مسار الخطاب إضافة إلى تجويد عرضها وتحسين بسطها، إلى جعل الخطاب مقنعاً، فاعلاً، يبدل ويغير، يعلي ويحط، يشرع ويدحض ويعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطواعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحق بخطابه، ونود أن نذكّر هنا أن الفصل بين اطر الحجاج وتقنياته لا يعدو ان يكون سوى فصل إجرائي الغاية منه تمكين المتلقي من الوقوف على مفهوم الحجاج وطرائق التعبير المكونة له.

وقد نظّم من اشتغل بالحجاج من المنظرين تقنيات الحجاج وفق طريقتين من طرائق الربط:

١- الطرائق الاتصالية Procedes de Liason- والمقصود بها الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباينة بدءاً وفي الأصل، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها

لغاية هيكلتها أي إبرازها في هيكلية أو بنيـــة واضـــحة لغاية تقويم احد هذه العناصر بوساطة الآخر تقويماً ايجابياً أو سلبياً.

٢- الطرائـــق الانفصـــالية La dissociation des motions- القائمة على الفصل بين المفاهيم المعطيـــات وهو ما ينجم عنه توليد حقائق جديدة ينشـــئها المحـــاج بمفعول ما أجراه على تلك المعطيات وما مارسه علـــى تلك القيم من فصل تتحكم مقولتا الظاهر apparence والحقيقة Realite.

أولا:الطرائق الاتصالية: وتنقسم الى عدة حجج، أهمها:

١- الحجج شبه المنطقية: التي تعتمد في قوتها الاقناعيـــة على بعض البنى المنطقية مثل التناقض، والتماثل التام أو الجزئي وقانون التعدية، وتوظف الحجج شـــبه المنطقيـــة مضموني التناقض وعدم الاتفاق، فالتعارض هو اجتماع حكمين متناقضين في فرضية أو خطاب ما، والتنـــاقض غالباً ما يكون جلياً يسهل كشفه، أما كشف التعـــارض

فمثير للسخرية، لذا اعتبر (بيرلمان) السخرية أو الهزأ من أهم الأسلحة الحجابية.

أما التماثل التام فمداره على التعريف الذي يكون فيه المعرَّف والمعرِّف متماثلين لفظاً، الأمر الذي يجعلنا نعتبر اللفظ الثاني محمولاً على المجاز، حتى لا تكون العبارة الثانية حشواً أو تحصيل حاصل، ويضرب الحجاجيون مثلاً لهذه الصيغة القائمة على التماثل بالمثل المعروف في قولنا (المرأة هي المرأة) مع التأكيد أن هذه الصيغ لا تكتسب قيمتها الحجاجية إلا في مقامات خاصة. وتقوم حجج التعدية على استنتاج علاقات انطلاقاً من توظيف قيمة عنصر ثالث يتم المرور عبره لتأكيد صدق العلاقة بين العنصرين الأول والثاني، ويضرب لذلك مثال.

(عدو عدوي صديقي) فالطابع شبه المنطقي لهذه الحكمة يدعم ما يمكن ان يستنتج منها وهو: أن صديق عدوي عدوي.

أما الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، فيقوم الحجاج فيها على إدماج الجزء في الكل على

اعتبار أن الأول مندمج في الثاني، ويكون هذا الاندماج والارتباط مأخوذين من وجهة نظر كمية.

٢- الحجج المؤسسة على بنية الواقع: وهي حجج تستند إلى الحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وأحكام يسعى الخطباء التي تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة ومسلحاً بها، وذلك يجعل الأحكام المسلم بها والأحكام غير المسلم بها عناصر تنتمي الى كل واحد يجمع بينها، بحيث لا يمكن التسليم بأحدها من غير أن يسلم بالآخر، ومن هنا وصفها لكونها حججاً اتصالية أو قائمة على الاتصال، ويمثل الحجاجيون لهذا النوع بوجوه الاتصال التتابعي بوصفها تضم مظاهر الاتصال السببي كالربط بين بعض الأحداث المتتابعة بوساطة علاقات سببية أو استخلاص نتيجة ما بسبب حصول حدث أدى إليها، أو التكهن بما سبق لو أن الحدث المسبب قد حصل، ويمثلون لذلك على الترتيب بـ: اجتهد فنجح – نجح لأنه اجتهد هو يجتهد فسينجح.

والى وجوه الاتصال التتابعي تنتمي حجج التبرير وحجج الاتجاه. أما بخصوص حجج السلطة، فقد اتفقت

الاتجاهات الحجاجية على أن النسبة الكبرى من قيمته إنما يكتسبها من سلطة قائلة ومكانته وقيمته، فالعادة في الحجاج أن تكون الحجة بالسلطة الحجة الوحيدة فيه، وتأتي هذه الحجة مكملة لحجاج يكون غنياً بحجج أخرى غير حجج السلطة، وكثيراً ما نعمد إلى الثناء على هذه السلطة قبل استعمالها حجة في كلامنا، لكي نكسبها مصداقية اكبر. أما العلاقة الرمزية فتقوم على التلازم بين أطرافه، وهو تلازم قائم على علاقتي المشاركة والتبرير لا العلاقة الاعتباطية. ويشار في هذا المجال إلى أن استعمال هذا النوع بالذات من العلاقات الحجاجية لا يمكن توظيفه في أي مقام، لان إدراك العلاقة بين أطراف لرمز يمثل لب الفكرة الحجاجية، في حين أن هذه العلاقة لا يمكن أن يعرفها إلا أفراد المجتمع الذي صاغ ذلك الرمز، الأمر الذي يؤكد أن للرموز خصائصها الثقافية الحضارية البالغة الخصوصية، مثلما أن بعدها الجوهر بعد لا عقلاني.

٣- الحجج المؤسسة لبنية الواقع. وتقوم على مستويين أساسيين: أولهما: تأسيس الواقع بوساطة الحالات الخاصة

كالمثل Lexemple الذي يؤتى بـــه لتأكيـــد الفكـــرة المطروحة، ويلحق بالمثل الاســـتثمار بالنصـــوص ذات السلطوية على المخاطب كالمقولات الدينية أو كلمـــات القادة الخالدين في نظر الجماعة المقصـــودة لان قيمـــة الشخص المعترف بها سلفاً من قبـــل الســـامعين يمكـــن اعتبرها مقدمة حجاجية مهمة توظف في تحقيق العديـــد من النتائج، ومن هنا تكون مهمة المثل برهانية في حـــين تكون مهمة الاستشهاد توضيحية.

أما ثانيهما فيقوم على اســـتخدام التمثيـــل Anatyie استخداماً حجاجياً، لأنه في الحقيقة غير قائم على علاقة تشابه بل هو (تشابه علاقة) فضلاً عن وجه الشبه فيـــه عقلياً هو أمر يمنح المخاطب متعـــة كـــبيرة وتســـليماً بالفرضيات المقدمة وذلك يكشف دقـــة وجـــه الشـــبه وطرافة الاستدلال بالتمثيل، هذا إضافة إلى أن التوظيف الجيد للتمثيل في بنية حجاجية ما، من شأنه أن يضـــفي على مجمل عناصرها –حتى تلك غير الداخلـــة في بنيـــة التمثيل– دلالة كبيرة لم يكن لها في حالتها الانفراديـــة، وينبه (بيرلمان) إلى أن التمثيل في الحجاج مجال الإبداع،

يطلب من التمثيل في مجال الحجاج أن يلتزم وجه معين وإلا فقد طاقته الاقتناعية.

ثانياً: الطرائق الانفصالية في الحجاج:-

لا يقع هذا الفصل العناصر التي تؤلف وحدة واحدة يتم تجزئتها لغايات حجاجية، ولما كانت الوسائل اللغوية في كل نص حجاجي هي سداه ولحمته، أصبحت اللغة في الحجاج وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبر عنها وإقناعهم بصدقيتها عبر الاستناد إلى أنواع مختلفة من البنى منها بنية التكرار التي تضم – تكرار– الشكل تكرار المضمون. وبنية التوازي ونقصد به الربط بين عناصر متساوية في الحال، عنصر سابق وعنصر آخر متصل به أو لاحق. كل من هذين العنصرين حر، أي له كيانه الوظيفي الكامل[1].

يبدو (نهج البلاغة) متناً حجاجياً بامتياز، يظهر الفحص لأعطاف المدونة العلوية قصدية واضحة للتأثير بالجمهور على نوعيه: الخاص والكوني وستحاول هذه الورقة

---

١ . ينظر: التحاجج (٨)، الحجاج في البلاغة المعاصرة ص١٢٧ وما بعدها.

البحثية الكشف عن بعض التقنيات الحجاجية المبثوثة في جواب الأمام علي (عليه السلام) لمعاوية في كتاب بعثه إليه وصفه لشريف الرضي بأنه من محاسن الكتب.

اولاً: الحجاج بالتدعيم: ويقصد به إثبات المرسل صحة رأيه وصواب معتقدة بإزاء رأي الآخر أو معتقده بوسيلة (التدعيم) وهو على وجوه:

١- موقف الحجاج الأكثر شيوعاً في المدونات العربية هو تقديم إفادة Stalemate تحظى بموالاة المخاطب وربما طور المخاطب بسؤال أو بدعوى مفادة، وفي المتن النهجي المفحوص نلفي للملفوظ المدعم أو الدليل أنماطا شتى من أهما:

أ- الآيات القرآنية: إذا تأملنا قوله (عليه السلام) (فإسلامنا قد سمع، وجاهلينا لا تدفع وكتاب الله يجمع لنا ما شرعنا وهو قوله ﴿ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الانفال٥٧). وقوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ

الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. نجد أن العملية الحجاجية بنيت على النحو الآتي:

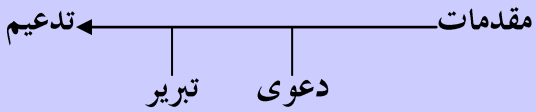

وفي قوله (عليه السلام) (وقد عرفت مواقع نصالها في أخيك، وخالك وجدك واهلك ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2] نجد النص الحجاجي جسّد على النحو الآتي:

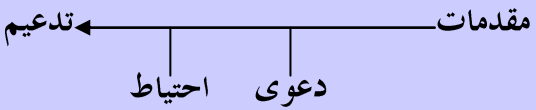

ويتنزل الحجاج بالنص القرآني في مدار حجة السلطة يحتج به ويعتقد بقداسته الأمر الذي جعل الشاهد القرآني فاصلاً بين الحق والزعم، هذه الوظيفة تزيد كلام الأمام (عليه السلام) والوسم الاقتناعي تمكناً ينفعل به الجمهور فيضاعف اعتقاده (وهذه الوظيفة ضرورة من

---

١ . آل عمران٦٨.
٢ . هود٨٣.

ضرورات الحجاج الفاعل لأن الحجاج في أصل مفهومه دائر على هذه الوظيفة)[1].

٢- تدعيم الحجاج بالشعر: يعد الشعر عند العرب الصوت المعبّر عن كيانهم، والنسق الثقافي الحاضن لغيره من الإنسان، فهو وجه من مصادر الاحتجاج تثبت به القواعد ويرشح عنه ما يرفد حركة التأويل ويقوي اسنادها ويترقد الشعر في نهج البلاغة عامة وفي هذه الخطبة بالخصوص معلماً بارزاً للعملية الحجاجية لما له على المتلقي العربي من تأثير، وفعل نوع من الانسجام بين الأمام (عليه السلام) محاجاً ومدافعاً عن أطروحاته ورؤاه ومقاصده، وبين الجمهور متلقياً للخطاب منفعلاً به.

ففي قوله (عليه السلام) (فزعمت إني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت فان يكن ذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر لك).

وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

نجد الخطاطة الحجاجية كما يلي:

---

١ . الحجاج وآفاق التأويل ص١٧٥.

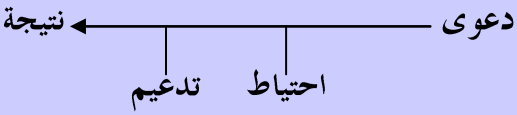

وقوله (عليه السلام): (وما كنت لاعتذر من اني انقم عليه إحداثا، فان كان الذنب إليه إرشادي وهداتي له، فرب ملوم لا ذنب له:

(وقد يستفيد الظنة المتنصح) .

وقوله (عليه السلام): وذكرت انه ليس لي ولأصحابي إلا السيف، فلقد اضحكت بعد استعبار، متى الفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيوف مخوفين.

(لبثّ قليلاً يلحق الهيجا حمل) .

فالاتيان بالشعر ملابساً الخطاب يعطيه درجة عالية من الفعل الحجاجي فضلاً عن التأثير في مخيال المتلقي، لذا جاء في هذه الرسالة (ركناً ودعامة تعاين كماً وتحدث فعلاً، إذ لا يكاد مقام من مقامات الاحتجاج يكون تصويباً لرأي أو نفياً لتصور أو تعميماً لرؤية إلا ويطلب فيها الشعر قاعدة تدعم أو مبدأ يقوم)[1].

---

١ . م.ن، ص١٦٩.

٣- المَثل: يقوم المثل في العملية الحجاجية مقام الاستقراء في المنطق، او المثل هو استقراء بلاغي. فالمثل حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدماتها ويراد استنتاج احديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها، والواقع (أن المثل يعتبر دعامة كبرى من دعائم خطاب الإقناع والتأثير، إذا أخذناه بمعناه الواسع الذي يشمل التشبيه والاستعارة)[١] ونجد في رسالة الإمام (عليه السلام) أمثلة متنوعة لتدعيم الحجاج عند المتلقي كقوله (إذ طففت تخبرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال)[٢] ويؤتى بالمثل Lexemple في حالة انعدام المقدمات وتستبطن المحاجة به وجود خلاف أو نزاع في شأن قضية محدودة، فيصار إلى المثل لدعمها أو لدحضها.

---

١ . في بلاغة الخطاب الاقناعي، ١٥.

٢ . هجر: مدينة في البحرين كثيرة النخل. والمسدّد: معلم رمي السهام. والنضال: المراماة أي كمن يدعو أستاذه في فن الرمي إلى المناضلة. وهما مثلان لناقل الشيء إلى معدنه والمتعالم على معلميه.

٢- التدعيم بالمصداقية: والمصداقية عامل مهم في الحجاج في ضوء تحديد ريك وسيلارز لأنواع المصداقية، ويمكن توصيف النص الحجاجي بجملة سمات وهي:

أ- قلما يلجأ الباث إلى المصداقية المباشرة، ذلك انه قلمّا يقدم عن نفسه إفادات مباشرة قصد زيادة قابليته للتصديق وينصرف همه – في المقام الأول- إلى التماس العلل المقنعة.

ب- اعتماد الخطاب الحجاجي العربي على المصداقية الثانوية (وهي التي تتأتى من ربط مصداقية شخص آخر بالحجاج) أقوى كثيراً من اعتماده على المصداقية المباشرة. ويرجع هذا إلى تجانف كاتب الحجاج العربي عن تقديم نفسه، تاركاً ذلك لفحوى الخطاب وفهم المخاطب[١].

ويظهر مثل هذا النوع من الحجاج في مدونته (عليه السلام)(إن قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهاجرين والأنصار ولكل فضل، حتى إذا استشهد شهيدنا، قيل:

---

١ . ينظر: النص الحجاجي العربي ص٥٤.

سيد الشهداء وخصه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه.

وقوله (عليه السلام) في موضع آخر: فإسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع.. فنحن مرة أولى بالقرابة، وتارة أولى بالطاعة. فالحجاج في هذه النصوص ينضوي تحت التدعيم بالمصداقية عبر استحضار الأنساق الثاوية خلف الملفوظ وهي انساق فاعلة في الثقافة الإسلامية، نظراً لما يصل هذا الأنساق باسيقة النص اللسانية والتداولية فيصبح الحجاج متجاوزاً العبارة ليغُرس في الخطاب بشكل مدمج.

٣- التدعيم بالقيمة: والقيمة مفهوم مركزي يستخرج مما يقوله الناس، وقد تضمَّن، ولكن تضمينها يقع في حالات كثيرة جداً، تحدد النظرية الحجاجية المعاصرة للقيمة نمطين اثنين: القيمة الوسيلة instrumeenta value والقيمة الغاية terminul value الأولى تضع إفادة عما هو ذو قيمة والأخرى توجه الناس إلى الوضع الذي يتغياه المتكلم[١] والمتتبع لخطاب الإمام علي (عليه

---

١ . ينظر: م،ن. ص٥٣.

اسلام) يجد ميل خطابه إلى القيمة الغاية ميلاً أقوى تأثيراً في الحصول على مستوى من الموالاة adherence يجعل المستقبلين يغيرون سلوكهم، ففي قوله (عليه السلام): (فدع عنك من مالت به الرمية فإنّا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومك، إن خلطانكم بأنفسنا) وقوله (عليه السلام) (وما على المسلم من غضاضة في إن يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها) نلحظ على الكلام المذكور اثر المقام وتوظيفه حجاجياً عبر (القيمة) فللمقام والسياق اثر جليل في توجيه مسارات القول الحجاجي وتلوينه بصيغة معينة، ونجد لهذا الأمر صدى في كلام (صوله) وهو يعرض أفكار بيرلمان وتيتيكا في الحجاج، إذ يقول (ومهما يكن من أمر، فان في عرض المعطيات، ينبغي إن يكون المقال مطابقاً للمقام من اجل حجاج ناجح)[1].

---

١ . الحجاج في القرآن، ص٣١٩.

وتتزل القيم في الحجاج مرتبة سامقة فهو يدور حولها ويهديها بتوجهه وحين يرسم الحجاج مقدمات فما له تثبيت قيم تترسخ عند جمهور المتلقي.

ثانياً: القياس المضمر Enthymeme احد أنواع القياس المنطقي، معيار القياس المضمر انه قياس محذوف المقدمة، وهي المقدمة الكبرى.. ويبدو القياس المضمر في مثل هذه الحالة آلية منطقية للوصول إلى نتيجة أو غرض يشبه ما يسمى بالتعريض للبقيا، آلية في الخطاب يمثّل لها القدماء بتعريض الله بأوصاف المنافقين وإمساكه تسميتهم إبقاءً عليهم، ويستوجب القياس المضمر حضوراً يقظاً للقارئ مع النص يستنبط له من سياق الحجاج مقدمته المحذوفة ويمكن الوقوف عند بعض النماذج المبثوثة في كلام الإمام (عليه السلام) المتغيأ بها حجاجاً اقناعياً بوساطة القياس المضمر قوله (عليه السلام)(قد خبأ لنا الدهر منك عجباً، اذ طفقت تخيرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر أو داعي مسدده إلى النضال) وقوله (وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس

وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟! هيهات لقد حنّ قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها) فكشف التعارض في حجج الخصوم، يبدأ بجعل دواعيهم وخطاباتهم (التأويلات، الأخبار) متناقضة منطقياً وتداولياً فينتج عن ذلك نوع من اشتداد التواطؤ المعرفي التصوري بين الامام صانعاً للخطاب والجمهور متلقياً له منفعلاً به.

ومأتى حجية هذا الإجراء الحجاجي من توسله ببنية منطقية يستنبطها جواب الإمام (عليه السلام) ويدعو المتلقي بالاقتضاء إلى الإيمان بها (فيحصل بذلك ضرب من التناظر بين طريقة عرض تناقض الدعوى وعدم اتفاق التخريج وكفاءات الجمهور المقررة في تقدير الأشياء وتغييرالأحكام التي عادة ما تنشد انشداداً وثيقاً وترتبط ارتباطاً محكماً بالقضايا التي يكون نظام البرهنة فيها مرتدياً لبوساً منطقياً تتناظر فيه وقائع الصدر والمقدمات مع حالات الخواتم والغايات).

بنية التوازي:

التوازي Parataxis ربط بين عناصر متساوية في الحال عنصر سابق وعنصر آخر متصل به أو لاحق. كل من هذين العنصرين حر، أي له كيانه الوظيفي الكامل، ونميّز هنا بين التوازي على النحو السابق والتركيب Hypotax، فالتركيب ربط بين عناصر غير متساوية الحالة، فهناك العنصر المتحكم، وهو عنصر حر، والعنصر المتحكم فيه، وهو غير حر. وكل منطوق خليط من السلاسل المتوازية والمتراكمة مثال ذلك:

– سأفعل إن استطعت ولكنني لن افعل

١ (أ) (ب) ٢

نرى هنا علاقة تواز بين: "سأفعل إن استعطعت" و"لكنني لن استطيع" وتبين هذه العلاقة هكذا ١ ٢.

ونرى ايضاً علاقة تراكب بين "سأفعل" و"إن استطعت" وتبين هذه العلاقة أ ب[١].

وتتحدد بنية التوازي في علاقتين رئيستين:

---

١ . ينظر: النص الحجاجي،٦٥.

١- علاقة التمديد، ويمكن إن نمثّل لها بقوله (عليه السلام): (او لا ترى أن قوماً قطعت أيديهم في سبيل الله، ولكلّ فضل حتى إذا فعل بواحدهم ما فعل بواحدنا)، قيل: "الطيار في الجنة وذو الجناحين".

٢- علاقة التصميم: يمثّل لها بقوله (عليه السلام): وما على المسلم من غضاضة في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً في يقينه، وهذه حجتي إلى غيرك قصدها، ولكني أطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها.

أفعال الكلام:

يرى (فان ايميرن وجرو تندورست) ان الأفعال الكلامية تسهم بادوار متنوعة في الحجاج إذ يضطلع كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب وتترتب الأفعال حسب مقدار الاستعمال، فالمرسل يستعمل اغلب أصناف الفعل التقريري، إن لم يكن كلها ليعبر عن وجهة نظره وليحدد موقفه من نقطة الخلاف، كما يستعمله للمواصلة في حجاجه من طريق التأكيد أو الادعاء وكذلك لتأسيس نتيجة. وقد تضمنت جوابيته

(عليه السلام) الكثير من الأفعال الكلامية التي تقوم بدور حجاجي للتأثير في جمهور المتلقين وإقناعهم، ففي قول (عليه السلام) (وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين والأنصار) فهنا الفعل الكلامي (التعجب) يصنّف ضمن المعبِّرات (الافصاحات) وهي مجموعة منوعة تدور حول التوجهات والسلوك الاجتماعي لاسيما تجاه الوقائع الخاصة التي تمثّل مضمون القول التي يجري توظيفها في تضاعيف الملفوظ لتقوم بأثر حجاجي معين.

أما قول (عليه السلام) (الا تربّع زايها الإنسان على ظلعك وتعرف قصور ذرعك) نجد الفعل الكلامي ينتمي إلى فئة "التوجيهات، والغرض منها حمل المخاطب بدرجات مختلفة على أداء عمل معين.

ويُدرج كلامه (عليه السلام) حجاجياً ضمن مفهوم المعارضة، فمعلوم أن ما يعرضه المعلل يتضمن دعوى وتعليلاً، وبناء على ذلك فان المعارضة قد تنصبُّ على القسم الأول أي الدعوى، وقد تنصبّ على القسم

الثاني أي التعليل، فإذا انصرفت المعارضة إلى الدعوى في ذاتها "كانت معارضة في الدعوى، اما إذا انصرفت إلى عمدتها التعليلية فإنها تكون معارضة في الدليل او معارضة في العلة"[1] والحجاج عند أمير المؤمنين (عليه السلام) ينتمي إلى النوع الأول، أي المعارضة في الدعوى.

أما الفعل الكلامي المتضمن في قوله (عليه السلام) "فأينا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتلة؟ أمنّ بذل له نصرته فاستقعده واستكفه فيصنف ضمن فئة أفعال الكلام غير المباشرة ويرتبط الفعل ألانجازي غير المباشر بوصفه فعلاً كلامياً، ارتباطاً وثيقاً بمقاصد المتكلم، ويحقق المتكلمون بمساعدة اللغة ما يرمونه من تأثير وقصود، إذ نعرف في اللغة بين ما يقال وما يقصد "فيتعلق المعني في المقام الأول بالجانب الانجازي للفعل الكلامي"[2] فالتركيب الاستفهامي في كلامه (عليه السلام) فيدرج ضمن الحجاج بالاستفهام ويولي (بيرلمان) ادواراً حجاجية لا

---

١ . الحجاج والمغالطة، ص٩٨.
٢ . الخطاب القرآني، ص١٢٢.

يستهان بها للموجه الاستفهامي لما له من أهمية بلاغيـــة يرشح منها فعل حجاجي عند جمهور المتلقين "فالسؤال يفترض موضوعاً ما، وانطلاقاً منه يتوقع ان ثمة اتفاقـــاً حول وجود هذا الموضوع، كما ان الإجابة على سؤال ما تعني التأكيد على هذا الاتفاق الضمني"[1] وهـــو مـــا يمكن تلمسه من غرض إبطال دعوى معاوية في نصـــرة عثمان.

الصفة تعد الصفة من الأدوات التي تمثل حجة للمرسل في خطابه، وذلك باطلاقه لنعت معين في سبيل إقنـــاع المرسل إليه، وبهذا فان الصـــفة تمثـــل أداة في الفعـــل الحجاجي وعلامة عليه، فلا يقتصر المرسل على توظيف معناها المعجمي او تأويله، بل يبتغي التقويم والتصـــنيف واقتراح النتائج التي يرد حصولها او فرضها.

وهذا ما يعطيها الطواعية والمرونة التي هي من صـــلب خصائص الخطاب الطبيعـــي في الممارســـة الحجاجيـــة، ليمارس المرسل أكثر من فعل واحد، بالتصنيف وبتوجيه انتباه المرسل اليه الى ما يريد أن يقنعه في حجاجه، وقد

---

١ . الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص١١٧.

وجدنا مثل هذا الفعل الحجاجي في قول (عليه السلام): منا النبي ومنكم المكذب ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف، ومنّا سيد شباب أهل الجنة، ومنكم صبية النار ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم.

فالتدبر في النص المزبور يجد أن استعمال الصفات جاء لغرض حجاجي بحت، فاختيار النعوت والصفات ملائمة للحجاج "فالصفات تنهض بدور حجاجي مهم يتمثل في كون الصفة إذ نختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع ويبدو هذا خاصة حين نجد صفتين متناظرتين ولكنهما متعارضتان"[1].

المصادر والمراجع

استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

١ . الحجاج في القرآن، ص٣١٦.

التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه تنسيق حمو النقاري، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية عبد الله صوله، دار الفارابي، ط٢، ٢٠٠٧م.
الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الأشكال والاستراتيجيات) د. علي الشبعان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
الحجاج والمغالطة، رشيد الراضي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ٢٠١٠م.
النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع (بحث) محمد العبد، فصول، العدد ٦٠، صيف، خريف ٢٠٠٢م.
نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، د.ت.

الملاحق

ومن كتاب له (عليه السلام) الى معاوية جواباً، وهو من محاسن الكتب:

اما بعد، فقد اتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لدينه، وتأييده اياه بمن ايده من اصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً اذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا، ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك كناقل التمر الى هجر، او داعي مسدده الى النضال.

وزعمت ان افضل الناس في الاسلام فلان وفلان، فذكرت امراً ان تم اعزلك كله، وان نقص لم يلحقك ثلمته (ثلمه)، وما انت والفاضل والمفضول، والسائس والمسوس؟ وما للطلقاء وابناء الطلقاء، والتمييز بين المهاجرين الاولين، وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم؟ هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها.

الا تربع ايها الانسان على ظلعك، وتعرف قصور ذرعك؟ وتتأخر حيث اخرك القدر، فما عليك غلبة المغلوب، ولا لك ظفر الظافر؟!

وانك لذهاب في التيه، رواغ عن القصد، الا ترى –غير مخبر لك، ولكن بنعمة الله احدث– ان قوماً استشهدوا في سبيل الله من المهارجين (والانصار) ولكل فضل، حتى اذا استشهد شهيدنا، قيل: "سيد الشهداء"، وخصه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه؟ او لا ترى ان قوماً قطعت ايديهم في سبيل الله، ولكن فضل حتى اذا فعل بواحدنا ما فعل بواحدهم، قيل: "الطيار في الجنة وذو الجناحين" ولولا ما نهى اله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة، تعرفها قلوب المؤمنين، ولا تمجها اذان السامعين، فدع عنك من مالت به الرمية فانا صنائع ربنا، والنالس بعد صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا عل قومك، ان خلطناكم بنفسنا، فنكحنا وانكحنا، فعل الاكفاء ولستم هناك، وانى يكون ذلك كذلك ومنا النبي، ومنكم المكذب، ومنا اسد الله ومنكم اسد

الاحلاف، ومنا سيد شباب اهل الجنة، ومنكم صبية النار، ومنا خير نساء العالمين، ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم.

فاسلامنا قد سمع، وجاهليتنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا وهو قوله: ﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن مرة اولى بالقرابة، وتارة اولى بالطاعة.

ولما احتج المهاجرون على الانصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلجوا عليهم، فان يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وان يكن بغيره فالانصار على دعواهم.

وزعمت اني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت، فان يكن ذلك كذلك فليست الجناية عليك فيكون العذر اليك.

(وتلك شكاة ظاهر عنك عارها) .

وقلت: "اني كنت اقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى ابايع" ولعمر الله! لقد اردت ان تذم فمدحت، وان

تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في في ان يكون مظلوماً ما لم يكن شاكاً في دينه، ولا مرتاباً بيقينه، وهذه حجتي الى غيرك قصدها، ولكني اطلقت لك منها بقدر ما سنح من ذكرها.

ثم ذكرت ما كان من امري وامر عثمان، فلك ان تجاب عن هذه لرحمك منه، فأينا كان اعدى له واهدى الى مقاتله؟ أمن بذل له نصرته فاستقعده واستكفه، أمن استنصره فتراخى عنه وبث المنون اليه حتى اتى قدره عليه؟ كلا والله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

وما كنت لاعتذر من اني كنت انقم عليه احداثاً، فان كان الذنب اليه ارشادي وهدايتي له، فرب ملوم لا ذنب له.

(وقد يستفيد الظنة المتنصح) .

وما اردت الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت.

وذكرت انه ليس لي ولأصـــحابي الا الســـيف، فلقـــد اضحكت بعد استعبار، متى بني عبد المطلب عن الاعداء ناكلين، وبالسيوف مخوفين.

(لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل) .

فسيطلبك من تطلب، ويقرب منك ما تســـتبعد، وانـــا مرقل نحوك في جحفل من المهاجرين والانصار، والتابعين لهم باحسان، شديد زحامهم، ساطع قتامهم، متسربلين سرابيل الموت، احب اللقاء اليهم لقـــاء ربهـــم، قـــد صحبتهم ذرية بدرية، وسيوف هاشمية، قد عرفت مواقع نصالها في اخيك، وخالك، وجدك، واهلك، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.